

دور الهجرة، والإسلام في تغير دلالات اللغة

يقول القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة:

فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأمهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً؛ وإلى ما للعرب فيه لغات فافتصروا على أسلسها وأشرفها؛ كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل؛ فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة؛ أكثرها بشع شنع؛ كالعشنت والنعنطن والعشنتق، والجسرب والشوقب والسلهب والشؤذب، والطاط والطوط، والقاق والقوق، فنبذوا جميع ذلك وتركوه، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان، وقلة نبؤ السمع عنه. وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحو ببعض اللحن، وحتى خالطتهم الركافة والعجمة، وأعلنهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق، فانقلت العادة، وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتدوا بشعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنع من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين، فيظن ضعفاً، فإذا أُفرد عاد ذلك اللين صفاءً ورونقاً، وصار ما تخيلته ضعفاً رشاقة ولطفاً؛ فإن رام أحدهم الإغراب والافتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف، وأتم تصنيع؛ ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق، وإخلاق الديباجة.

الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 18.

2. يقول ابن خلدون:

لما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعرين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها، لجنوحها إليه باعتبار السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق

القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه. مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال بإشارة علي رضي الله عنه، لأنه رأى تغير الملكة، فأشار عليه بحفظها، ففرع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة، ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، أحوج ما كان الناس إليها، لذهاب تلك الملكة من العرب. فذهب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمل تقاريعها واستكثر من أدلتها وشواهداها، ووضع فيها كتابه المشهور، الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين، يحذون فيها حذو الإمام في كتابه. ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها، في الكوفة والبصرة: المصرين القديمين للعرب. وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آيات القرآن، باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معطي في الأرجوزة الألفية. وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر، منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرهما، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحى نحاة أهل الموصل، الذين أقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه. والله يزيد في الخلق ما يشاء.

المقدمة، ج3، ص 1267.

لعل أبرز مظاهر أثر الدين الإسلامي في اللغة العربية هو تحولها من لغة قوم قطرية إلى لغة دين عالمية، ومن التعبير عن مكونات حياة ضيقة إلى استيعاب مجالات حضارة واسعة، ومن الانزواء في شبه جزيرة العرب إلى الانتشار في أنحاء الكون. وقد لاحظ العلماء العرب القدامى أثر البيئة الاجتماعية بعد الإسلام في تحول اللغة العربية في ألفاظها ومعانيها.

وقد أشار القاضي الجرجاني إلى دور العامل الجغرافي في تحول اللغة، فرأى أن تحول العرب من البادية إلى الحاضرة جعل اللغة تتحول كذلك، فأصبحت أكثر رقة وليونة مما كانت عليه عند أهل البادية، واتسع المعجم اللغوي، وأعطى أمثلة عن ذلك.

ويتناول ابن خلدون الموضوع ذاته مشيراً إلى العلوم التي أسسها العلماء العرب حفاظاً على اللغة العربية كالنحو والصوف والمعاجم.

المطلوب: حلل النصين موسعا أفكارهما حول علاقة اللغة بتحول البنية الاجتماعية للعرب بعد مجيء الإسلام